الانسان والحيوان والحرب

للأستاذ عباس محمود العقاد

غير قليل ما يمكن أن يقال فى الإنسان والحيوان والحرب ، فإن الحرب تفتح المسارب بين الإنسانية والحيوانية على المصراعين بل على شتى المصاريع . وقد تفتح ما بين الإنسان وبين عالم البطولة والملأ الأعلى كذلك .

فى وسعنا أن نزيد مقالاً آخر لأصدقائنا القراء الذين استزادونا من الكتابة فى هذا الموضوع ، وما أحفله بالحقائق والمشاهدات ، وما أوسع مناديح القول فيه .

* * *

الإنسان يتهم الحيوان بعدوى الحرب ، ويزعم الحربيون من الأناسىّ أنها آفة لا معدى عنها ولا دواء لها ، مذ كانت وراثة الطبع الحيوانى حيث كان ، مبتدئاً من الجراثيم ومنتهياً إلى الحيوان

وفريق من بنى آدم يبرئون الحيوان من هذه التهمة ويحصرون آفة الحرب فى أبناء آدم دون سائر الأحياء .

أمنصفون هم لذرية آدم ؟ أصادقون هم فى تبرئة الحيوان ؟

بعض الإنصاف وبعض الصدق لا مراء .

فهم يسألون : أين هو الحيوان الذى يحشد الأسراب والقطعان لقتال سرب أو قطيع من جنسه ؟ بل أين هو الوحش الذى يجمع أبناء جنسه لقتال جنس آخر من الوحش فى الغاب أو فى المراء ؟

والحق أنهم فى هذا السؤال محرجون ، فالحرب كما نعلمها فى ميادينها البشرية إنما هى خاصة من خواص أبناء آدم : هم دون غيرهم من الخلائق الحية يجمعون بعضهم لقتال بعض ، ويخرجون على نية القتال حيث لا يقاتل حيوان وهو يعلم أو ينوى أن يقدم على قتال .

فالحرب ولا جدال إنسانية مقصورة على أبناء آدم ، وإن كان المراك قسطاً مشتركاً بين جميع الأحياء .

* * *

وآخرون من الأناسىّ الحربيين يزعمون أن الحرب لا تزول لأن الطبيعة لا تتبدل ... فما كان فى النفس قبل آلاف السنين سيبقى فى النفس بعد آلاف السنين ! !

أصحيح ما يزعمون ؟

صحيح بعض الصحة ، لأن رأياً من الآراء لن يكون صحيحاً كل الصحة فى جميع الأحوال .

صحيح ، والشاهد من عالم الحيوان الذى يحتجون به فى استدامة البغضاء والشكاسة والقتل والقتال .

فأين كلب اليوم من أجداده بين الذئاب وأبناء آوى ووحشى الكلاب ؟

كلب اليوم يحرس الحملان والأطفال ، ويموت فى سبيل الود والولاء ...

وكلاب الأمس كانوا أخطر شىء على الحملان والأطفال ، وأجهل خلق بالمودة والولاء .

فإذا جاز أن ينتقل الكلب هذا الانتقال وليست له حضارة ولا علوم ولا فلسفة ولا حالة عليا يصير إليها من حالته السفلى ... ألا يجوز أن ينتقل الإنسان مثله أو مرحلة أوسع من مرحلته ، وهو يعبر المسافة بين جهل الهمج وثقافة المهذبين ؟

* * *

وللحيوان أنصار كثيرون بين أبناء آدم ، أعجب ما فى أمرهم أنهم أرفع الآدميين خلقاً وأبعدهم من الحيوانية شقة وأوفرهم من التقدم نصيباً ، فهم — من بعض الوجوه — أحق بالإيحاء على الحيوان من أولئك الذين يتعقبونه بالإيحاء والتنديد ، وهم أقرب الناس إليه !

أنصار الحيوان هؤلاء يكتبون العجب هذه الأيام فى الذود عنه والرجعة بسيئاته إلى أصحابه من الآدميين . وقلما تخلو كتاباتهم من ظرف وفكاهة ... أما العلم والإدراك فهما ماثلان أبداً فيما يطرقون من هذه البحوث .

لاحظ بعض العلماء المتفرغين للبحوث النفسية والحيوانية من الإنجليز أن الشجار قد ازداد بين الكلاب بعد نشوب الحرب الحاضرة ، فبلغ عدد الكلاب المعوضة التى عالجتها مصحات الشرطة فى لندن خلال شهر أكتوبر الماضى أربعمائة وعشرة ، ولم يتجاوز فى الشهر الذى قبله مائة وثمانية وتسعين !

أكثر من الضعف فى الشهر التالى لنشوب القتال ... فما تعليل ذلك ؟

يقول مستر جونت Gaunt خبير هذه المصحات : إنها عدوى الإنسان ! !

فالكلاب ، كما يقول : « مرهفة الحس بما يخالج نفوس أصحابها ، تضيق صدراً إذا ملكت صاحبها الحالة التي نسميها بالعصبية الحربية . وأنت إذا غضبت يوماً من قراءة أخبار الغارات الجوية خرج كلبك متحفزاً للوثوب على أول كلب يراه ، لا يعلم في أي شيء يقاتل ، وليس لديه ما يسميه الساسة : أغراض حرب أو شروط سلام ؛ وحسبه أن صاحبه ثائر ، فهو مثله يثور ! »

ثم يقول الأستاذ جونت : « ويجوز أن يرجع هذا المزاج الكدر في كلاب العاصمة إلى قلة الرياضة لكثرة الوقايات الهوائية وضرورة المكث الطويل في البيوت ، أو لسفر أصحاب الكلاب إلى الريف ، ولكن السر الأكبر ولا ريب ، إنما هو تلك النزعة القتالية التي تسري إليها من عشرائها الآدميين » .

أرأيتم إذن ؟

إنه الإنسان الذي يلقح الحيوان بلقاح الحرب والعدوان ، وليس الحيوان بالأستاذ السابق له في هذا الميدان .

والمسألة بعدُ واضحة من غير حاجة إلى هذه الدراسات الحديثة وإن كانت هذه الدراسات مضيفة في الغد بعض المعرفة الجديدة بالطبائع والأخلاق .

فواضح قبل هذه الدراسات أن الإنسان يستعين بالحيوان في حروبه ، ولم يحدث قط أن حيواناً استعان بإنسان في افتراس ضحاياه واغتيال أعدائه .

ومن قديم الزمن يستعين الإنسان بالحصان والكلب كلما وقع في نزاع بينه وبين أبناء جنسه ، وأقل من ذلك عذراً أنه يستعين بالحمامة وهي رمز السلام والسلامة في تبليغ أوامر الفتك والهجوم . فقد يعذر المستعين بالحصان والكلب على أغراض الحرب لأنهما كانا عصراً من العصور الغابرة معدودين في حساب الوحوش ... أما الحمامة فما عذر من يقحمها هذا المقحم المخيف ، وهي في غير ما قاله المعري عنها :

ظلم الحمامة في الدنيا وإن حسبت ... في الصالحات كظلم الصقر والباز

لا تتعرض لانتهام !

* * *

ومضى الناس في الحرب الحاضرة على سنة آبائهم من قديم الزمن ، فلم يعتقوا الحصان بعد كل ما كشفوه من الآلات والمركبات . ولا يزال رجال من قادة الحرب يقولون إن له لدوراً لا يغني فيه غناءه شيء ولا يلحقه فيه اختراع .

ولم يعتقوا الكلب بعد اختراعهم من أدوات التجسس والاستنشاء ما يرغم أنوف الكلاب ، بل ضاعفوا الحرص عليها وصدرت أوامر الحكومة الروسية بتحريم خروجها من أرضها إلا أن تكون معها شهادة إعفاء تثبت أنها « غير صالحة للخدمة العسكرية ! »

والجديد فيما سمعنا به من مخترعات الحرب الحاضرة أنهم استخدموا الخنازير في بعض الجزر ببحر الشمال للتنبيه إلى الغارات الجوية ، فإذا هبطت الطيارة المغيرة إلى الأرض على غرة من الرقباء صرخت الخنازير صرخة معلومة فتنبه الحراس إلى مكان الغارة .

كان الخنزير متهماً بالخبث قبل اليوم في غير برهان

أما اليوم فيحق لمن يقع في شراكه أن يقول مقال الغيظ أو مقال الاعتراف : يا له من خنزير !

* * *

لكن في الحرب براً من الإنسان بالحيوان وليست كلها شراً في شر وعدواناً على عدوان

فإذا قلب الناس غداً صفحات الحروب الناصعة فسيجدون بينها صفحة من أنصع صفحاتها في هذه الحرب الحاضرة : تلك هي المصلحة التي أنشئت خصيصاً بالجزر البريطانية لوقاية الحيوانات أثناء الغارات الجوية . فأعدت الحكومة مئات الألوف من الصفائح التي تنقش عليها مواطن تلك الحيوانات وأسماء أصحابها وعناوانهم للدلالة عليها وردها إلى مواطنها كلما شردت من الذعر إلى مكان بعيد عنها ، وندبت الحكومة ألوفاً من متطوعيها للطواف على البيوت والحقول ابتغاء تسجيل ما فيها من فصائل الحيوانات المختلفة وتزويدها بالعلامات الدالة عليها . وأقامت ملاجئ للأسماك متفرقة هنا وهناك لإيواء ما يحتاج إلى العلاج والإنقاذ من الحيوانات المصابة أثناء الغارات ، ودبرت الأمر للعناية بها كما دبرت الأمر للعناية بالآدميين

صفحة ناصعة في التاريخ الحديث ، وحيوان من يجعل أنها مكسب روحي للإنسان قبل أن تكون مكسباً جسدياً للحيوان المصاب ، حتى لو كان باعث التدبير فيها مقروناً ببواعث العطف والإشفاق .

عباس محمود العقاد